بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة هود

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾

هذه سورة هود التي قال عنها النبي ﷺ: «**شيَّبتني هود**»، وهي سورة مكية نزلت على النبي ﷺ قبل الهجرة النبوية.

ومعنى الآية الأولى منها ما يلي: ﴿الٓرۚ﴾ سبق الحديث عن الحروف المقطَّعة في صدر سورة البقرة.

﴿كِتَٰبٌ﴾ وهو القرآن قد ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ بعجيب النظم، وبديع وبليغ المعاني ﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ أحسن تفصيل، وتم بيان ما فيها من الأحكام والقصص والمواعظ ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ وهو الله سبحانه وتعالى.

وكان ذلك الإحكام، وهذا التفصيل لهذه الآيات.. !! لما في قوله تعالى:

﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ٢﴾

يعني: حتى لا تعبدوا إلَّا الله وحده ﴿إِنَّنِي﴾ مرسل ﴿لَكُم مِّنۡهُ﴾ سبحانه ﴿نَذِيرٞ﴾ بالعذاب إن كفرتم ﴿وَبَشِيرٞ﴾ بالثواب إن آمنتم.

وكان ذلك الإحكام وهذا التفصيل لهذه الآيات أيضًا.. لمَا في قوله تعالى:

﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ٣﴾

يعني: حتىٰ تستغفروا ﴿رَبَّكُمْ﴾ من جميع ألوان الشرك بالله ثم تتوبوا إليه، وتعودوا إلىٰ الطاعة.

فإذا فعلتم ذلك ﴿يُمَتِّعْكُم﴾ ربكم في الدنيا ﴿مَّتَٰعًا حَسَنًا﴾ بطيب عيش، وسعة رزق، وسلامة عافية ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ محدد الوقت وهو الموت.

﴿وَيُؤْتِ﴾ كذلك ﴿كُلَّ ذِى فَضْلٍ﴾ وحسن أداء في العبادة ﴿فَضْلَهُۥ﴾ أي: جزاءه الحسن.

﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾ وأعرضوا عن العبادة، والاستغفار، والتوبة.. بعد هذا الإحكام والتفصيل لآيات القرآن، قل لهم: ﴿فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ وهو يوم القيامة.

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾﴾

خاصة وأنه ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ في هذا اليوم الذي لا مفر لكم منه.

كذلك ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ بما في ذلك إعادتكم وإثابة المطيع بحسن الجزاء وعقاب العاصي بسوء المصير.

وبهذا تبيَّن أن الإحكام والتفصيل إنما كان؛ لتحقيق مقاصد القرآن، وهي: العبادة، والاستغفار، والتبشير والإنذار.

ثم يبيِّن ربنا عز وجل أنه يعلم ما في صدور أعداء الدعوة، الذين يتولون ويعرضون عن عبادة الله وحده، وعن الاستغفار وعن التوبة.

حيث يقول الحق تبارك وتعالىٰ:

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾﴾

والمعنىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ يخفون ما فيها من العداوة، ويتظاهرون بغير ذلك ﴿لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ﴾ سبحانه.. يخفون علينا..!!

﴿أَلَا﴾ إنهم ﴿حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ﴾ يتغطون بها للاستخفاء ﴿يَعْلَمُ﴾ عز وجل ﴿مَا يُسِرُّونَ﴾ في قلوبهم ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ بأفواههم.

وبذلك لا يغنيهم منا، ولا يخفيهم عنا استخفاؤهم.

﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: القلوب وما فيها.

بدأ هذا الجزء من القرآن الكريم ببيان كون الله تعالىٰ عالمًا بكل شيء، قادرًا علىٰ كل شيء، وذلك لتقرير وحدانيته سبحانه.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾

ومعنىٰ الآية: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ تدبّ وتسير في الأرض ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: من الله تفضلًا، لا وجوبًا ﴿رِزْقُهَا﴾ الذي تعيش به.

كما أنه عز وجل ﴿يَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ مسكنها في الدنيا، أو في الأصلاب ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ بعد الموت أو في الرحم.

﴿كُلٌّ﴾ ذلك وغيره مع جميع أحواله ﴿فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ واضح، وهو اللوح المحفوظ.

ثم يقول الحق سبحانه وتعالىٰ:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾

أي: ﴿وَهُوَ﴾ الله ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وما في الأرض ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ كأيام هذه الدنيا، أو كل يوم منها بألف سنة مما تعدون أو غير ذلك، علم ذلك عنده وحده سبحانه، وكان ذلك الخَلْق في ستة أيام؛ لتعليم خلقه التأني.

﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ﴾ قبل خلق ذلك ﴿عَلَى ٱلْمَآءِ﴾.

وكان هذا الخلق للسمٰوات والأرض، وما فيهما ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ ويختبركم ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أطوع لله، وأكثر شكرًا لنعمه.

هذا، ﴿وَلَئِن قُلْتَ﴾ للمشركين ﴿إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ﴾ ومحاسبون على ما قدمتم من خير أو شر...

﴿لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ لك ﴿إِنْ هَٰذَآ﴾ أي: ما هذا الذي تقول أو الذي جاء به القرآن ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ واضح تمنع به الناس عن التمتع بلذات الدنيا، وتصرفهم به إلى البطلان والخداع.

وهذا كلام الكافرين الذين لا تزيدهم النعم والإمهال إلَّا عتوًا وعنادًا.

يقول الحكيم الخبير جل جلاله:

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾﴾

يعني: هؤلاء الكفار لو ﴿أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ الذي يستحقونه ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ طائفة من الزمن ﴿مَّعْدُودَةٍ﴾ ومحسوبة ﴿لَّيَقُولُنَّ﴾ استهزاءً واستنكارًا ﴿مَا﴾ الذي ﴿يَحْبِسُهُۥٓ﴾ ويؤخِّره ويمنعه من النزول بنا، إلَّا لأنه ليس حقيقة، ولا يوجد بعث، ولا حساب ولا عقاب، ولا جنة ولا نار؟!!

﴿أَلَا﴾ إنه ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ هذا العذاب، فإنه أبدًا ﴿لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ ولا ممنوعًا وساعتها يكون قد ﴿حَاقَ بِهِم﴾ ونزل ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ من العذاب، لا ندم يفيدهم، ولا مغيث ينقذهم.

ثم يخبر ربنا سبحانه عن الطبيعة البشرية لهذا الكافر المعاند في موقفها من الشدة والرخاء، فيقول عز وجل:

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾﴾

أي: إذا أنعمنا على هذا الكافر وأذقناه ﴿مِنَّا رَحْمَةً﴾ من: صحة، أو غنى، أو جاه ﴿ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ﴾ وسلبناها عنه.

﴿إِنَّهُۥ﴾ يكون بسبب ذلك ﴿لَيَـُٔوسٌ﴾ قنوط مقطوع الرجاء من أن تعود إليه هذه النعمة، بل ﴿كَفُورٌ﴾ بنعم الله كلها.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾﴾

أي: إذا أنعمنا عليه وأذقناه ﴿نَعْمَاءَ﴾ من صحة، أو غنى، أو جاه، أو غير ذلك ﴿بَعْدَ﴾ هذه المصيبة والضراء التي نزلت به ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ غرورًا ونسيانًا لرحمة الله به ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ بجهدي، وعقلي، ولن ينالني بعدها سوء.

﴿إِنَّهُ﴾ بسبب ذلك النسيان لفضل الله، وبسبب طبيعته الجاحدة لشكر الله ﴿لَفَرِحٌ﴾ بهذه النعماء ﴿فَخُورٌ﴾ على الناس.

وهذه هي طبيعة الجاحد، وأما المؤمن المتَّصف بالصبر والعمل الصالح، فيقول عنه ربه عز وجل:

﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾

يعني: وليس هكذا المؤمنون ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ في الشدة والمحنة، وكل ابتلاء ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ في جميع أحوالهم لا ييأسون من رحمة الله، ولا يكفرون بنعمه تعالى: في السراء، وفي الضراء.

حيث إنهم في المحن. كما أنهم بعد زوال المحن ليسوا فرحين بطرًا، ولا فخورين غرورًا، ولهذا فقد منَّ الله عليهم عظيم العطاء.

حين يقول: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم مهما عظمت ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ من النعيم المقيم، والأمن من عذاب الله، والنظر في الجنة إلى وجهه الكريم.

ثم يثبِّت الله تعالى رسوله ويؤازره في دعوته أمام هذه الطبيعة العنيدة للمشركين، والتي كشف لنا بعضًا من صفاتها في الآيات السابقة.

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾

أي: ﴿فَلَعَلَّكَ﴾ يا محمد بسبب طبيعتهم هذه ﴿تَارِكٌ﴾ تبليغ ﴿بَعْضَ مَا يُوحَى

﴿إِلَيْكَ﴾ إليهم مخافة ردهم لك، واستهزائهم بك، ولعلك ﴿وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ﴾ أي: بتلاوته عليهم ﴿صَدْرُكَ﴾. وذلك الترك والضيق مخافة ﴿أَن يَقُولُواْ﴾ متعنتين ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ﴾ لتكون غنيًا، وننفقه معك ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ﴾ من الملائكة؛ لنصدقه.

يا محمد.. لا تهتم بكلامهم هذا، وبلِّغ كل ما أوحي إليك، ولا يضيق به صدرك. فلست عليهم بوكيل، ولا عن مواقفهم بمحاسب ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ﴾ فأنذرهم، ولا تخش شيئًا، ولا تُخْفِ شيئًا، ولا عليك الإتيان بما طلبوا واقترحوا.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ حفيظ، يجازيهم بما يستحقون، فتوكَّل عليه، ووكِّل أمرك كله إليه.

يا محمد ماذا يقولون لك..؟

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۖ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾

يعني: هل يقولون افترىٰ محمد القرآن، واختلقه من عند نفسه..؟

﴿قُلْ﴾ لهم إن كنت قد افتريته أنا، فأنتم أرباب الفصاحة ﴿فَأْتُواْ﴾ إذن ﴿بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ من عندكم ﴿مُفْتَرَيَٰتٍ﴾من صنعكم ﴿وَٱدْعُواْ﴾ معكم لتحقيق هذا الغرض ﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وافعلوا ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في أنني افتريته من عندي. قل لهؤلاء الكافرين سأمهلكم ما شئتم.

﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾

أي: فإن لم تستطيعوا أنتم ولا مَن تدعونهم من دون الله أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ﴾ إذن ﴿أَنَّمَآ أُنزِلَ﴾ هذا القرآن ﴿بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ ومن عند الله.

وبالتالي فاعلموا ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ سبحانه ﴿فَهَلْ أَنتُم﴾ بعد هذا كله ﴿مُّسْلِمُونَ﴾، ومنقادون لله تعالىٰ، ومتبعون لشرعه؟ لعل وعسىٰ أن يكون.. !!

وإذا كان المانع للناس من اتباع القرآن، ومن عبادة الله، والاستعداد للآخرة هي الدنيا، فإنه تبارك وتعالىٰ يقول:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾

معنىٰ الآية: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ﴾ امتلاك ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ والتمتع بزينتها ويعمل لذلك، ويجتهد فيه ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: نحقق لهم ما يريدون ﴿فِيهَا﴾ أي: في الدنيا ﴿وَهُمْ فِيهَا﴾ أي: في أعمالهم ﴿لَا يُبْخَسُونَ﴾ لا ينقصون لأننا ﴿لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

وهذا قد عمل للدنيا فقط، واجتهد فيها، وأخلص لها، وليس له غير ذلك.

وأما في الآخرة، فيقول عنهم ربهم:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾

يا الله!! ﴿لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ﴾ نعم: لأنهم ما عملوا في الدنيا لمرضاة الله، وإصلاح البلاد، وإسعاد العباد، ولكنهم أرادوا فقط التمتع بزينة الحياة الدنيا والعبث بها.

ولذلك: ﴿حَبِطَ﴾ ضاع ﴿مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا﴾ لأنه بلا ثواب، ولا نتيجة.

ومن هنا: فـ ﴿بَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

ألا فلينتبه الغافلون!! هذا حال مَن أراد بعمله ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ۚ﴾ [هود: ١٥]!!

فما حال مَن أراد بعمله وجه الله والدار الآخرة؟ وهل يستويان؟ يقول الله تعالىٰ:

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾

يقول تعالىٰ: لا يستوي أبدًا مَن عمل للدنيا فقط ـ لأنه بغير هدى من الله ـ ومَن عمل للآخرة؛ لأنه ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ وبرهان بأن دين الإسلام هو الحق والهدى ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾.

كما أن هذا البرهان والدليل علىٰ أن الإسلام حق يتلوه، ويعززه ﴿شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أي: جاءه بذلك شاهد من الله، وهو محمد ﷺ، ومعه القرآن الكريم.

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: القرآن ـ كذلك ـ كان ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ عليه السلام ﴿إِمَامًا﴾ قدوة للناس ﴿وَرَحْمَةً﴾.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الذين يعملون للآخرة ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي: بالقرآن.

ولذلك فلهم الجنة، وأمَّا ﴿مَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ أتباع الملل كلها ﴿فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ ومصيره.

﴿فَلَا تَكُ﴾ أيها العاقل ﴿فِى مِرْيَةٍ﴾ شك ﴿مِّنْهُ﴾ من القرآن، ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أرسله مع محمد ﷺ، هداية ونورًا.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ به، مع وضوح الأدلة علىٰ الوحي به.

هؤلاء الذين لا يؤمنون بالله، ويكذبون علىٰ الله، ويعملون للدنيا فقط يصفهم رب العزة فيما يلي بأربعة عشر وصفًا:

يقول الله تعالىٰ:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾

يعني: ليس هنا ظالم أظلم ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ﴾ في نسبة الشريك والولد إليه، وجعل له شريكًا، أو ولدًا، تعالىٰ الله عن ذلك.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أوصافهم هي هذه:

الوصف الأول: يفضحهم ربهم يوم القيامة ﴿يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ عرضًا تظهر معه فضائحهم.

الثاني: يفضحهم أهل المحشر ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ تشهيرًا بهم ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟﴾ في الدنيا ﴿عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ﴾.

الثالث: يلعنهم الله يوم القيامة ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هؤلاء.

وهذه الثلاثة في الآخرة.

وفي الدنيا.. يقول عنهم:

﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾﴾

الرابع: ﴿يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: يمنعون أنفسهم وغيرهم عن دين الله واتباعه والعمل به.

الخامس: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: يريدون الحياة الدنيا معوجة إلىٰ غير ما أراد الله لها، ولخلقه فيها.

السادس: ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ فلا يعملون لها.

ثم يقول الله تعالىٰ:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾

الوصف السابع: أنهم ضعفاء أمام قدرة الله ﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا﴾ ولن يكونوا أبدًا ﴿مُعْجِزِينَ﴾ لله يستطيعون الهرب منه، ومن عذابه لهم.

الثامن: ليس لهم أنصار ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من غيره ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ ينصرونهم، أو يمنعون عنهم عذاب الله.

التاسع: عذابهم مضاعف ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾.

العاشر: صمٌ عن سماع الحق ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ للحق، سماع انتفاع به.

الحادي عشر: عميٌ عن آيات الله ﴿وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ ما يدلهم علىٰ الإيمان والهدىٰ. ثم يقول الله تعالىٰ:

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾﴾

الوصف الثاني عشر: أنهم خسروا أنفسهم ﴿أُولَٰئِكَ﴾ هم ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ ومصيرهم إلىٰ النار.

obeikandl.com

الثالث عشر: خذلهم ما كانوا يعبدونه من دون الله ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من الآلهة، التي كانوا يزعمونها.

أخيرًا: يقول ربنا عز وجل:

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾

وفي هذه الآية الكريمة: **الوصف الرابع عشر** لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالله، ويكذبون على الله، ويعملون للدنيا فقط، حيث يقول ربنا: حقًّا هؤلاء ﴿فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾؛ لأنهم استبدلوا دركات جهنم عن درجات النعيم، واعتاضوا عن شرب الرحيق المختوم بسموم وحميم، وعن الحور العين بطعام من غسلين، وعن القصور العالية بالهاوية، وعن قرب الرحمٰن ورؤيته بغضب الديان وعقوبته.

وبعد بيان حال الكافرين المعذَّبين، يكون بيان حال المؤمنين المنعَّمين في قوله تعالىٰ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾

ومعنىٰ الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بقلوبهم وعقولهم ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بجميع جوارحهم ﴿وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ وخضعوا وخشعوا لجناب ربهم، وجاؤوا بأعمالهم وجلين خائفين راجين أن تقبل منهم، ﴿أُولَٰئِكَ﴾ هم ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾، ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا يموتون، ولا يمرضون، ولا يهرمون، ولا ينامون، ولا يتغوطون.. إلخ.

وبعد أن ذكر الله أحوال الكفار وصفاتهم، وما كانوا عليه من العمىٰ عن الحق والصمم عن سماعه، وذكر المؤمنين، وما كانوا عليه من البصيرة وسماع الحق والانقياد للطاعة.

ذكر فيهما مثالًا مطابقًا، فقال جل وعلا:

﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

ضرب الله لنا هذا المثل حيث شبَّه ربنا عز وجل فريق الكافرين بالأعمىٰ عن معرفة وجه الحق في الدنيا والآخرة، لا يهتدي إلىٰ خير ولا يعرفه، والأصم عن سماع الحق فلا يسمع ما ينتفع به، كما شبَّه سبحانه فريق المؤمنين بالبصير، الذي يعرف وجه الحق في الدنيا والآخرة، والسميع للحق، الذي يعمل به ويبلغه.

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ وصفة..؟

لا.. أبدًا ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فتعتبرون فتنتفعون فتكونون من أهل الإيمان..؟

بعد أن تحدَّثت الآيات السابقة عن موضوع العبادة، والاستغفار، والتوبة، وبيَّنت أن الناس بالنسبة لهذا الموضوع فريقان: فريق المؤمنين، وفريق الكافرين، وضربت لكل فريق مثله، تقدِّم الآيات فيما يلي نماذج حية واقعية من قصص بعض الأنبياء عليهم السلام وأقوامهم ومواقفهم من موضوع العبادة هذا. فتقدم: **قصة نوح** عليه السلام مع قومه.

حيث يقول ربنا تبارك وتعالىٰ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾

والمعنىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ يدعوهم إلىٰ توحيد الله وعبادته.

فقال لهم: يا قوم ﴿إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: أنذركم وأخوِّفكم لتنقذوا أنفسكم من عذاب الله، وكلامي واضح، وحجتي واضحة.

ودعوتي لكم ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ وحده حيث إنه ما لكم من إلٰه غيره.

يا قوم ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ إن خالفتم ولم توحدوا الله وتعبدوه ﴿عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ يوم القيامة، فآمنوا، واعبدوا الله وحده، واستغفروه، وتوبوا إليه.

ماذا كان جوابهم؟

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ ۖ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾

أي: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ وهم الرؤساء الذين يملأون العيون

أبهة، والصدور هيبة، في الجواب عليه ثلاثة أشياء: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ لست بملِك، ولا ملَك، ولا فضل علينا.

﴿وَ﴾ كذلك: ﴿مَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ أي: ضعفاؤنا وفقراؤنا وأسافلنا ﴿بَادِيَ ٱلرَّأْيِ﴾ الذين يؤمنون بالشيء سريعًا دونما تفكير وإعمال عقل منهم.

ومن جهة ثالثة: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ في مال أو خلق أو جاه ﴿بَلْ﴾ نحن ﴿نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾ فيما تدعونه.

وهذا: هو قول المعاندين للحق، في كل العصور، وكل البيئات.

وهنا: ردَّ عليهم نوح عليه السلام بهذه الردود بغاية التلطف والأدب، شأن الأنبياء والدعاة إلىٰ الله عز وجل:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾

وهذا هو الرد الأول ومعناه: ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ﴾ أخبروني ما رأيكم ﴿إِن كُنتُ﴾ أنا ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ ويقين ﴿مِّن﴾ وحدانية ﴿رَّبِّي﴾ كما أنه سبحانه ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً﴾ وهي النبوة ﴿مِّنْ عِندِهِۦ﴾ لأبلِّغكم رسالة الله، ﴿فَعُمِّيَتْ﴾ وخفيت ﴿عَلَيْكُمْ﴾ هذه الأشياء ولم تفهموها ولم تؤمنوا بها!!

﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ ونرغمكم علىٰ الإيمان بهذه الوحدانية، وهذه النبوة ﴿وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾؟ إن هذا لا يصح ولا يكون، حيث إنه ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ثم يقول عليه السلام:

﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾

الرد الثاني: قال ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ﴾ وأطلب منكم ﴿عَلَيْهِ﴾ وهو تبليغ الرسالة والدعوة إلىٰ التوحيد ﴿مَالًا﴾ من عندكم، وإلَّا كان لكم الحق في موقفكم هذا.

ولكني أبتغي وجه الله فقط ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ وثوابي ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ وحده.

الرد الثالث: قال لهم ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ من عندي، ولا من متابعتي كما تريدون وتطلبون؛ حيث ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ ويشكونني إليه إن نفذت رغبتكم الخاطئة وطردتهم، كما أنه هو الذي يجازيهم ويكافئهم لا أنتم، فلم تبخلون عليهم بالهدى ؟!!

والله، ليس لهذا من سبب فيما أرىٰ ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ قدرهم عند الله، كما أنكم تجهلون قيمة ما أدعوكم إليه. ثم قال عليه السلام:

﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

وهل فيكم ﴿يَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِي﴾ وينقذني ﴿مِن﴾ عذاب ﴿ٱللَّهِ﴾ ﴿إِن طَرَدتُّهُمْ﴾ من ساحة الإيمان بناءً علىٰ رغبتكم؟ طبعًا لا يوجد.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ وتتعظون وتعدلون عن مواقفكم إذن؟ ثم قال عليه السلام:

﴿لَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّيٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

وهذا هو الرد الرابع.. ومعناه: يا قوم أنا لا أكذب، ولا أدعي العلم بما ليس لي به علم، ولذلك: ﴿لَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ وأَدَّعي فضلًا عليكم، حتىٰ تتَّبعوني.

﴿وَلَآ﴾ أقول لكم إني ﴿أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ فأخبركم عن آبائكم الأولين، وأعرف ما في ضمائركم، وضمائر أتباعي.

﴿وَلَآ أَقُولُ﴾ لكم ﴿إِنِّي مَلَكٌ﴾ حتىٰ تقولوا ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ [هود: ٢٧].

﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِيٓ﴾ وتحتقر ﴿أَعْيُنُكُمْ﴾ من أتباعي المؤمنين ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ في الدنيا أو في الآخرة، تحقيقًا لرغبتكم، فـ ﴿ٱللَّهُ﴾ وحده ﴿أَعْلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ ولست أنا، وسيجازيهم عليه، ولست أنا ولا أنتم.

يا قوم ﴿إِنِّيٓ﴾ لو كذبت عليكم، وادعيت العلم بما ليس لي به علم، وقلت شيئًا من ذلك، لكنت ﴿إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وبهذا رد عليهم بمنتهى الحزم ومنتهى الأدب، دون أية مساومة أو تفريط في حق الذين آمنوا معه واتبعوه.

فماذا كان موقفهم بعد هذا الوضوح، وبعد أن قامت الحجة عليهم؟ رفضوا الحق، وأعرضوا عن أهله، حيث:

﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾

أي: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ﴾ دعوتنا للتوحيد وعبادة ربك فرفضنا وأبينا و﴿قَدْ جَٰدَلْتَنَا﴾ وأقمت علينا الحجج والأدلة، فرفضنا دعوتك، وأبينا اتباعك ﴿فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ وأتعبتنا ولن نتبعك ولن نؤمن معك، وقد هددتنا بالعذاب.

﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من هذا العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فيما تهدِّدنا به.

وهنا: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ لهم نوح عليه السلام: أنا لا أملك أن آتيكم بشيء من هذا العذاب ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ عاجلًا أو آجلًا ﴿إِن شَآءَ﴾ هو لا أنا، فهو الذي يملك أمري وأمركم وأمر كل شيء. ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ له سبحانه أو هاربون منه.

ثم قال لهم:

﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾

يعني: كما أني لا آتيكم بما أعدكم به من العذاب، بل يأتيكم به الله إن شاء، فإنه ﴿لَا

﴿يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ﴾ لكم ووعظي إياكم ﴿إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾ وأحببت أن ينصلح حالكم ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ﴾ لا يريد ذلك لكم، بل ﴿يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ ويضلكم، بسبب ظلمك وطغيانكم وعنادكم.

﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿رَبُّكُمْ﴾ المتصرف في أموركم ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم بما تستحقون.

وهنا يقول رب العزة:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾

يعني: بل ﴿يَقُولُونَ﴾ أي: قوم نوح، علىٰ نوح عليه السلام أنه ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ أي: هذا الذي بلغنا به، من الدعوة إلىٰ التوحيد والعبادة.

﴿قُلْ﴾ لهم يا نوح ﴿إِنِ﴾ كنت قد ﴿ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾ واختلقته من عند نفسي ﴿فَـ﴾ هذا إجرام، و﴿عَلَيَّ﴾ وزر ﴿إِجْرَامِى﴾.

ولكنني لم أختلقه من عند نفسي حتىٰ أكون كذلك، بل أنتم المجرمون برفضكم دعوة التوحيد، ورفضكم عبادة الله سبحانه.

﴿وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ في رفضكم هذه الدعوة، ومجرمون في نسبتكم الافتراء والاختلاق إليَّ.

وبعد هذا التأكيد لصدق نوح عليه السلام: تواصل الآيات عرض باقي تفاصيل هذه القصة.

حيث يقول ربنا تبارك وتعالىٰ:

﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾

أي: أوحينا إلىٰ نوح بقرب النهاية وأخبرناه، بـ: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ﴾ بعد هذه المدة التي قضيتها بينهم، وهي ألف سنة إلَّا خمسين عامًا، تبلغهم فيها دعوة الله، ولم يؤمن معك ﴿إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ ولذلك ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ ولا تحزن ﴿بِـ﴾ سبب ﴿مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ معك، من الإيذاء، والتكذيب، والاستهزاء.

ثم قال عز وجل له:

﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَٱصۡنَعِ﴾ يا نوح ﴿ٱلۡفُلۡكَ﴾ السفينة ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ إن كنت لا تعرف، فسنعلمك ونحميك من الخطأ في صنعها، وستكون هذه السفينة آلة النجاة لك ولمن آمن معك من عذابنا ﴿وَ﴾ إذا جاء العذاب ﴿لَا تُخَٰطِبۡنِي﴾ ترك إهلاك ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ بشفاعتك لهم؛ حيث ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ لا محالة. **وبدأ نوح** عليه السلام:

﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

وصار نوح عليه السلام ﴿يَصۡنَعُ﴾ السفينة تنفيذًا لأمر الله تعالىٰ.

﴿وَ﴾ كان ﴿كُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ﴾ وهو يصنعها ﴿سَخِرُواْ مِنۡهُۚ﴾ واستهزؤا به، فما كان يأبه لسخريتهم، ولا يتأثر باستهزائهم.. !!

بل كان يقول لهم: ﴿إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا﴾ اليوم ﴿فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ﴾ غدًا بإذن الله، عند رؤية إهلاككم ﴿كَمَا تَسۡخَرُونَ﴾ منا عند رؤيتكم صناعة السفينة.

ثم قال لهم مهدِّدًا:

﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴿٣٩﴾﴾

أي: إذا جاءت ساعة النهاية ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ ونعلم أيضًا ﴿مَن يَأۡتِيهِ﴾ منا ﴿عَذَابٞ﴾ من عند الله ﴿يُخۡزِيهِ﴾ في الدنيا ﴿وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾ في الآخرة. وبالطبع، فأنتم أهل هذا الخزي، وذاك العذاب المقيم.

ثم يخبرنا ربنا عز وجل تفاصيل ساعة النهاية هذه، فيقول:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴿٤٠﴾﴾

يعني: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ بالعذاب وحانت ساعة النهاية، وصارت الأرض تفور

بالماء، كما يفور تنور الجناز بالنار.. ﴿قُلْنَا﴾ لنوح ﴿ٱحْمِلْ فِيهَا﴾ أي: في السفينة ﴿مِن كُلٍّ﴾ أي: من كل صنف ﴿زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾.

واحمل كذلك ﴿أَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ منهم، أنه من أهل النار، فلا تحمله ولا تحزن عليه.

﴿وَ﴾ احمل أيضًا ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾ معك واتبعك.

﴿وَمَا﴾ كان قد ﴿ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ مع أنه مكث فيهم كثيرًا.

وحمل نوح عليه السلام في السفينة ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾.

وحمل فيها ـ كذلك ـ أهله ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾.

وحمل فيها ـ ثالثًا ـ ﴿مَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾

أي: ﴿وَقَالَ﴾ نوح عليه السلام لأهله والمؤمنين معه ﴿ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا﴾ وقولوا: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ وحده نركب، وعليه وحده نتوكل، فباسمه وحده، يكون جريها على وجه الماء، وباسمه وحده يكون رسوّها على اليابسة؛ حيث إنه به وحده سبحانه: مجريها ومرسيها.

﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ﴾ لمن آمن ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم، حيث خلصهم ونجاهم.

فركبوا فيها وأخذوا يقولون: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾.. !!

﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾

وصارت السفينة ﴿تَجْرِى بِهِمْ﴾، وهم فيها، على وجه الماء، والموج كأنه الجبال، في الارتفاع والعظم.

يقول الله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١١، ١٢].

وهنا.. وفي هذه الأمواج العاتية والظروف القاسية: ﴿نَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾ النداء

الأخير، بعد أن دعاه كثيرًا قبل ذلك للإيمان معه، فلم يستجب ﴿وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ عن الماء وأمواجه في البداية. قال له: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ وآمن لتنجو مع المؤمنين ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فتغرق. ولم يستجب الولد لنداء أبيه، حيث:

﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾

أي: لم يستجب، ولم يؤمن، ولم يركب بل ﴿قَالَ﴾ لأبيه ﴿سَـَٔاوِيٓ﴾ أي: سألجأ وأصعد ﴿إِلَىٰ جَبَلٍ﴾ عال ﴿يَعْصِمُنِي﴾ وينجيني ﴿مِنَ﴾ الغرق في ﴿ٱلْمَآءِ﴾.

﴿قَالَ﴾ له والده: يا بني آمن، واركب معنا، فإنه ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ﴾ ولا منجِّي ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ وعذابه ﴿إِلَّا مَن﴾ آمن و﴿رَحِمَ﴾.

ولم يستجب وصارت السماء تنهمر بالماء، والأرض تفجر بالماء، والماء يعلو، والأمواج تتلاطم، حتىٰ ﴿حَالَ﴾ وفرق ﴿بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ﴾ ولم يركب مع أبيه، وغرق ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ الكافرين الظالمين. أخيرًا:

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾

يعني: وقال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ﴾ الذي تفجر منك ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي﴾ وكفي عن المطر، وبهذا ﴿غِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ ونقص، وظهر وجه الأرض مرة أخرىٰ، جافًا يابسًا ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ وانتهىٰ، وهلك الظالمون ﴿وَٱسْتَوَتْ﴾ السفينة بالمؤمنين سالمة آمنة ﴿عَلَى﴾ المكان المسمىٰ بـ ﴿ٱلْجُودِيِّ﴾.

﴿وَقِيلَ بُعْدًا﴾ وهلاكًا ﴿لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وبعد أن تمَّت النجاة، واستقرت الأمور تذكَّر نوح عليه السلام ولده وأخذته شفقة الأب، وتطلع إلىٰ رحمة ربه.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾

قال نوح عليه السلام لربه مستعلمًا: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ وقد وعدتني بنجاة أهلي ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ الذي لا يتخلَّف، وقد غرق ابني وهلك مع الهالكين، وكلي ثقة وإيمان بأنك ﴿أَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ ولكن رجائي في نجاة ابني من النار باقٍ، وأملي في ذلك كبير. وأجابه المولىٰ سبحانه:

﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ له ربه ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ﴾ لم يؤمن، ولذلك ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ﴾ الذين وعدتك بإنجائهم، حيث كان وعدي بإنجاء أهلك إلَّا مَن سبق عليه القول منهم بعدم الإيمان، وهذا ممن سبق عليه القول بعدم الإيمان، وعدم النجاة، وأما هذا الولد، فـ ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ﴾ وأنا أعلم به منك.

ولذلك: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ﴾ أي: إلَّا بجواز سؤال ﴿بِهِۦ عِلْمٌ ۖ﴾، وهذا السؤال لا يجوز لك أن تسأله.

يا نوح: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ﴾ بمواعظي، كراهة ﴿أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ فتسأل ما يسألون. **وعلىٰ الفور:**

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾

يعني: ﴿قَالَ﴾ نوح عليه السلام مستغفرًا ونادمًا علىٰ سؤاله ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ﴾ وألجأ إليك تائبًا من ﴿أَنْ أَسْـَٔلَكَ﴾ بعد ذلك ﴿مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ﴾ صحيح.

فاغفر لي يا رب وارحمني ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى﴾ غفرانك علىٰ ما فرط مني ﴿وَتَرْحَمْنِىٓ﴾ برحمتك وعصمتك عن العود لمثله ﴿أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ في الدنيا والآخرة. **وفي النهاية:**

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾

أي: قال تعالىٰ لنوح عليه السلام ﴿ٱهۡبِطۡ﴾ انزل من السفينة ﴿بِسَلَٰمٖ﴾ بتحية وأمن من الغرق ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾ في ذريتك ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾ أيضًا.

ولكن معك كذلك مَن سينشأ من ذريتهم ﴿وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ﴾ في الدنيا بسعة الرزق وطيب العيش ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ لكفرهم.

ويعقِّب ربنا عز وجل.. علىٰ قصة نوح هذه قائلًا لمحمد عليه الصلاة والسلام:

﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ٤٩﴾

يعني: هذه القصة، وما حدث فيها نبأ ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ الذي لا يعرفه أحد ﴿نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ﴾ ونقصّها عليك ﴿مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ﴾ من قبل أن نوحيها إليك، حتىٰ يقول بعضهم، إنك تعلمتها منه، ومع هذا سيكذبونك، وسيعاندونك.

﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ ولا تحزن عليهم حيث ﴿إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ﴾ الحسنىٰ في النهاية ﴿لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ وهذا ما كان مع من سبقك ـ كما عرفناك ـ من المرسلين.

وتبدأ الآيات الكريمة في عرض قصة أخرىٰ لنبي آخر، وأمة أخرىٰ، وهي:

قصة هود عليه السلام، مع قومه «عاد». حيث يقول المولىٰ عز وجل:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ ٥٠﴾

والمعنىٰ: أرسلنا ﴿إِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ﴾ يدعوهم إلىٰ التوحيد وعبادة الله، ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وحده ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ﴾ يستحق أن يعبد.

ثم قال لهم: إن لم تعبدوا الله، وعبدتم غيره ما ﴿أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ﴾ أي: كاذبون في نسبة الألوهية إلىٰ غير مستحقها. **ثم قال:**

﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٥١﴾

﴿يَٰقَوْمِ﴾ منتهىٰ التلطّف معهم والرفق بهم ﴿لَآ أَسْـَٔلُكُمْ﴾ وأطلب منكم ﴿عَلَيْهِ﴾ وهو تبليغ الرسالة والدعوة إلىٰ التوحيد ﴿أَجْرًا﴾ من عندكم إلَّا كان لكم الحق في موقفكم هذا.

ولكنني أبتغي وجه الله فقط ﴿إِنْ أَجْرِيَ﴾ وثوابي ﴿عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ﴾ خلقني وحده، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ذلك فتؤمنون؟!!.

ثم واصل معهم قائلًا:

﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

والمعنىٰ: ﴿وَيَٰقَوْمِ﴾ أقول لكم ناصحًا ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ عما سبق من كفركم وعنادكم بالإيمان ﴿ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ سبحانه، عما سبق من ذنوبكم، وعما يأتي من تقصيركم، فإذا سمعتم نصحي، واستغفرتم، وتبتم.. ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم﴾ بالمطر ﴿مِّدْرَارًا﴾ كثيرًا فتزرعون وتحصدون، ويأتيكم الرخاء والغنىٰ.

﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً﴾ في المال والولد، وكل شيء ﴿إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ الحالية.

يا قوم استمعوا إلىٰ نصحي، واعملوا به ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا۟﴾ وتعرضوا عني وعن دعوتي فتظلوا ﴿مُجْرِمِينَ﴾.

أتدرون بماذا أجابوه..؟

﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾

أي: ﴿قَالُوا۟﴾ له تكبرًا وعنادًا واستهزاءً ﴿يَٰهُودُ﴾ إنك ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ بمعجزة دالة علىٰ صدقك!!

﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ﴾ أي: بالذين نترك ﴿ءَالِهَتِنَا﴾ وعبادتها ﴿عَن قَوْلِكَ﴾ أي: بسبب قولك لنا اتركوها، واعبدوا الله.

وعلىٰ كل حال، حتىٰ ولو جئت ببينة ﴿مَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ فلا تحاول معنا ما تحاوله لنؤمن بك .**ثم قالوا له:**

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾

أي: ما ﴿نَّقُولُ﴾ يا هود ﴿إِلَّا﴾ أنه قد ﴿ٱعْتَرَىٰكَ﴾ أصابك ﴿بَعْضُ ءَالِهَتِنَا﴾ التي نعبدها ﴿بِسُوٓءٍ﴾ بسبب حربك لها. ولذلك فأنت تهذي، وتقول ما تقول.

وعلىٰ الفور.. ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾

﴿مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾

يعني: ﴿قَالَ﴾ لهم هود ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ﴾ علىٰ أني بريء مما تقولون، إذْ لا تستطيع آلهتكم فعل شيء ﴿وَٱشْهَدُوٓا۟﴾ أنتم بدوركم علىٰ ﴿أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أنتم مع ربي آلهة تزعمونها ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ أي: غيره.

وعلىٰ كل حال هذا موقفي منكم ومن آلهتكم ﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا﴾ أنتم وآلهتكم، وافعلوا ما شئتم من كلٍّ، ما تستطيعون من إيذائي والكيد لي ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ أي: لا تتأخَّرون في هذا الإيذاء الذي تريدون، وفي هذا غاية التحدي، ومنتهىٰ الثقة بنصر الله، وعلامة التوكل عليه. ولذلك قال مباشرة:

﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾

أي: اعتمادي ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ سبحانه وتعالىٰ هو ﴿رَبِّى﴾ الذي أؤمن به وأعبده، وهو رَبُّكُمْ الذي لا تؤمنون به ولا تعبدونه.

﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ﴾ تتحرك وتدب علىٰ وجه الأرض، ومنها أنتم ﴿إِلَّا هُوَ﴾ عز وجل ﴿ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ﴾ مالك أمرها، وهي تحت سلطانه.

ولذلك كان توكلي عليه، وتوجهي إليه، وعبادتي له.

﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ علىٰ الحق الواضح يدل عليه، فآمنوا به واعبدوه وتوكلوا عليه. ثم قال لهم أخيرًا:

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾

يعني: قال لهم هود ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أي: تتولوا وتعرضوا عن دعوتي، وترفضوا الإيمان بالله، وتصروا على الكفر، ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ﴾ من دعوتكم للإيمان وعبادة الله وحده، وليس لي عليكم إكراه ولا إجبار.

وسيهلككم الله ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى﴾ في الأرض وفي الأموال والديار ﴿قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يؤمنون به ويوحِّدونه، ويعبدونه، وأما أنتم فـ: ﴿لَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ﴾ إنما سيعود الضرر عليكم وحدكم، ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ لا تخفى عليه أعمالكم، ولا تفوته مؤاخذتكم وعقابكم. **وفي النهاية:**

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾

أي: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ بالعذاب أهلكنا عادًا، عن طريق الريح العقيم حيث:

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٦].

وهذه الريح: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧].

و﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ وفضلٌ من لدنا ﴿وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أصاب الكافرين من قوم هود.

ويعقِّب ربنا عز وجل على قصة هود هذه قائلًا للدنيا كلها، ليعتبر أهلها:

﴿وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾

هذه عاد ﴿جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ وكفروا بها ﴿وَعَصَوْا۟﴾ رسل ربهم حينما دعوهم إلى الخير والفلاح، ومَن عصى رسولًا واحدًا، فقد عصى الجميع ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟﴾

بدلًا من ذلك ﴿أَمْرَ﴾ ودعوة ﴿كُلِّ جَبَّارٍ﴾ من رؤسائهم ﴿عَنِيدٍ﴾ للحق، بعيد عنه.

وكان جزاؤهم كما عرفنا، وفوق ذلك يقول الحق:

﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾

أي: أن اللعنة والطرد من رحمة الله تبعتهم في الدارين، الدنيا والآخرة، وما ذاك إلَّا لأنهم ﴿كَفَرُوا۟﴾ بربهم وازدادوا طغيانًا.

﴿أَلَا بُعْدًا﴾ وهلاكًا ﴿لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ يستحقونه، وما ربك بظلام للعبيد.

انتهت بذلك قصة هود عليه السلام، كما عرضتها هذه السورة، وتبدأ الآيات الكريمة في عرض قصة أخرى لنبي آخر وأمة أخرىٰ، وهي: **قصَّة صالح** عليه السلام مع «ثمود».

حيث يقول الله تبارك وتعالىٰ:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾

يعني: ﴿وَ﴾ أرسلنا ﴿إِلَىٰ ثَمُودَ﴾ وهم سكان «الحجر» منطقة بين الشام والمدينة المنورة ﴿أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ﴾ يدعوهم إلىٰ التوحيد وعبادة الله وحده.

حيث ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وحده ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ﴾ يستحق أن يعبد.

ويلاحظ: أنها نفس دعوة الرسل أجمعين، من أولهم إلىٰ محمد ﷺ.

ثم قال لهم: هذا الإلٰه الذي أدعوكم إلىٰ عبادته وحده ﴿هُوَ﴾ الذي ﴿أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أنشأ أباكم آدم منها، وأجسادكم منها، فلا تتكبروا علىٰ عبادته وأنتم خلقه.

وكذلك هو الذي ﴿ٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ أي: طلب منهم عمارتها وإصلاحها، وحسن الخلافة فيها، فأطيعوه.

﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ أي: آمنوا به، واطلبوا مغفرته.

﴿ثُمَّ﴾ كلما أذنبتم بحكم بشريتكم ﴿تُوبُوٓا۟﴾ وارجعوا ﴿إِلَيْهِ ۚ﴾ يغفر لكم.

حيث: ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ الذي هو ربكم أيضًا ﴿قَرِيبٌ﴾ برحمته ﴿مُّجِيبٌ﴾ لمن آمن به، وتاب إليه، ودعاه.

استمعوا إلىٰ إجابتهم له، وردهم عليه:

﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾

أي: ﴿قَالُوا﴾ له ﴿يَا صَالِحُ﴾ ما هذا الذي تقوله؟ يا صالح، لقد كنا نأمل فيك خيرًا قبل هذا الكلام.. !!

أمرك عجيب يا صالح ﴿أَتَنْهَانَا﴾ بما تقول ﴿أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ من الأصنام..؟!

علىٰ كل حال نحن لا نصدقك فيما تقول: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ من التوحيد وعبادة الله من دون أصنامنا، ولا نطمئن لكلامك، ولا نثق فيه.

ولم يغضب صالح عليه السلام بل واصل الدعوة بالحسنىٰ، حيث:

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾

يعني: ﴿قَالَ﴾ لهم صالح ﴿يَا قَوْمِ﴾ أخبروني ما رأيكم إن كنت أسير الآن علىٰ طريق مستقيم، وبيان واضح من ربي، وآتاني منه ﴿رَحْمَةً﴾ أي: نبوة، هل أترك هذا الطريق المستقيم، وأخالف هذا البيان الواضح، وأسير معكم فيما أنتم عليه، وأعصي الله تعالىٰ؟

أخبروني إذن: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ﴾ وينجيني من عذابه ﴿إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ واتبعتكم، ولم أبلغكم رسالة ربي؟ ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي﴾ بموقفكم هذا، ورغبتكم هذه - إن وافقتكم ﴿غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ لي وتضييع لحالي، وسوء لمآلي.

ويخبر القرآن الكريم، كما في سورة الشعراء الآيتان [١٥٣، ١٥٤] أنهم قالوا له:

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾.

وهنا قال لهم:

﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾﴾

أي: يا قوم هذه هي المعجزة والآية التي طلبتموها دليلًا علىٰ نبوتي وصدق كلامي واقفة أمامكم، ماثلة بين أيديكم، نفعها لكم، ورزقها ليس عليكم ﴿فَذَرُوهَا﴾ اتركوها إذن ﴿فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ تتحرَّك بحريتها ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ من ذبح لها أو إيذاء، ولو فعلتم شيئًا مؤذيًا لها ﴿فَيَأْخُذَكُمْ﴾ من ربي ﴿عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ عاجل فوري سريع.

وفي هذا منتهىٰ النصح لهم، والشفقة عليهم.

فهل أطاعوه؟ كلا.. شأنهم شأن جميع الطغاة !!.

ماذا فعلوا ؟ قال تعالىٰ:

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾

يا سبحان الله.. !! ذبحوها ولم ينتفعوا بها معنويًّا ولا ماديًّا، يعني: لم يؤمنوا بسببها، ولم يتركوها لينتفعوا في حياتهم بلبنها. حقًّا إنه عناد الباطل وأهله.

﴿فَقَالَ﴾ لهم صالح عليه السلام: لقد حقَّت عليكم كلمة العذاب.

﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ﴾ أي: عيشوا في دياركم كما تحبون، وعلىٰ النحو الذي تريدون ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ فقط، ثم يأتيكم عذاب الله.

﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب ﴿وَعْدٌ﴾ منه سبحانه لكم، ولكل من عاند الحق، وهو وعد صادق ﴿غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾.

وكان الأمر كما قال صالح عليه السلام، عاشوا ثلاثة أيام فقط، ثم جاء العذاب.

يقول الله تعالىٰ:

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾﴾

يعني: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ بالعذاب، ونزل عذابنا بثمود ﴿نَجَّيْنَا﴾ من هذا العذاب ﴿صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ لهم، كما نجيناهم كذلك من الخزي والفضيحة التي لحقت بأقوامهم في هذا اليوم، والتي تلحقهم أيضًا في يوم القيامة.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ﴾ القادر الذي ينجِّي أولياءه ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي يهلك ويعذب أعداءه.

هذا عن صالح والذين آمنوا معه، وأما الذين كفروا، فيقول عنهم رب العزة:

﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾

يعني: أهلك الله الكافرين الذين ظلموا بالصيحة، وهي الرجفة الشديدة، مع الصوت المدمر لكل شيء، والذي تقطعت له قلوبهم في صدورهم، فماتوا جميعًا.

﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ﴾ ومنازلهم ﴿جَٰثِمِينَ﴾ ميتين، باركين على ركبهم. **وصاروا:** ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾

أي: انتهوا تمامًا، وكأن لم يكونوا فيها، ولم يقيموا بها.

وما ذلك العذاب إلَّا لأن ﴿ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ﴾ وكل كافر يعذب كذلك لكفره ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ من رحمة الله، ولكل كافر أيضًا.

وهكذا، كانت نهاية قوم صالح بالصيحة، وكانت نهاية قوم هود بالريح، وكانت نهاية قوم نوح بالطوفان.

وكانت العاقبة الحسنى هي: نجاة نوح، وهود، وصالح، عليهم السلام، ومَن آمن معهم.

وهو درس للدعاة إلى أنَّ طاعة الله واستغفاره؛ يقوِّي عزمهم، ويشد من أزرهم.

انتهت بذلك قصة صالح عليه السلام مع قومه، كما ذكرتها سورة هود.

وتبدأ الآيات في عرض قصة نبي آخر، وهو: **لوط** عليه السلام، ولكنها تبدأ بالمرور على «**إبراهيم** عليه السلام» لتبين لنا رعاية الله له، وإنعامه به.

حيث يقول ربنا سبحانه وتعالىٰ:

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾﴾

أي: جاءت الملائكة إلىٰ إبراهيم عليه السلام، وهي في طريقها إلىٰ لوط عليه السلام وقومه جاءت له ﴿بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ وهي أن الله سيرزقه بإسحق ومن بعده يعقوب، فلما دخلوا عليه ﴿قَالُوا۟﴾ سلَّمنا ﴿سَلَٰمًا﴾.

أجابهم ﴿قَالَ﴾: عليكم ﴿سَلَٰمٌ﴾ دائم، ثابت من الله تعالىٰ.

وذهب سريعًا وأتاهم بواجب الضيافة حيث ﴿جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ أي: مشوي.

وقدَّمه إليهم وقرَّبه منهم، وعزم عليهم.. فلم يمدوا إلىٰ الأكل أيديهم.

﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾

أي: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ﴾ لا تمد إلىٰ الأكل ولا تصل إليه: ﴿نَكِرَهُمْ﴾ أي: استنكر حالهم من عدم الأكل، ومن غرابة التصرفات؛ حيث سلموا عليه، علىٰ غير عادة أهل هذه البلاد وهذا الزمان، ودخلوا بلا استئذان.

وهنا ﴿أَوْجَسَ﴾ في نفسه وأضمر ﴿مِنْهُمْ خِيفَةً﴾.

فلما أحسوا منه الخوف ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾ منا ﴿إِنَّآ﴾ رسل الله ﴿أُرْسِلْنَآ﴾ منه سبحانه ﴿إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾.

كان هذا الحوار بين إبراهيم عليه السلام والملائكة.

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾

يعني: وكانت السيدة سارة امرأة إبراهيم عليه السلام قائمة علىٰ خدمتهم، وسمعت قول الملائكة: ﴿إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٠] فعرفت أن الهلاك نازل بقوم لوط، ففرحت لذلك، ﴿فَضَحِكَتْ﴾ استبشارًا بهلاك الظالمين، فجوزيت علىٰ موقفها هذا خيراً.

obeikandl.com

يقول اللهُ تعالىٰ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ أي: من بعده ﴿يَعْقُوبَ﴾ أي: بشرت بولد يعيش، ويكون له نسل، **وهنا:**

﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾

أي: ﴿قَالَتْ﴾ تعجبًا ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ أيكون لنا ولد بعد هذا السن؟!!

﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ بالنسبة لحالنا وسننا.

وردَّت عليها الملائكة:

﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾

أي: قالت الملائكة لها ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ﴾ وهو الذي يقول للشيء كن فيكون؟ هذه ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ﴾ أي: يا أهل بيت النبوة.

﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿حَمِيدٌ﴾ محمود في جميع أفعاله ﴿مَّجِيدٌ﴾ ممجد في ذاته، وكل صفاته.

كان هذا حال سارة، وأما إبراهيم عليه السلام فيقول عنه رب العزة:

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾

أي: لمَّا عرف إبراهيم أنهم ملائكة وأنس بهم وفرح لبشارتهم، صار يجادلهم ويناقشهم في شأن قوم لوط عليه السلام.

يقول المفسرون: كانت هذه المجادلة في صورة خمسة أسئلة وجهها للملائكة.

قال لهم: أتهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن؟ قالوا: لا.

قال: أتهلكون قرية فيها مائتا مؤمن؟ قالوا: لا.

قال: أتهلكون قرية فيها أربعون مؤمنًا؟ قالوا: لا.

قال: أفتهلكون قرية فيها أربعة عشر مؤمنًا؟ قالوا: لا.

قال: أفرأيتم إن كان فيها مؤمن واحد..؟

﴿قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٢].

ولكن.. لماذا يجادل ويناقش هكذا؟ الجواب في قوله تعالىٰ:

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾

أي: أن فيه ثلاث صفات، وهي: أنه ﴿لَحَلِيمٌ﴾ غير عجول بالعقاب لمن أساء إليه، ﴿أَوَّاهٌ﴾ كثير التأوه والخوف من الله ﴿مُّنِيبٌ﴾ رجَّاع إلىٰ الله تعالىٰ بالتوبة.

وهذه الصفات أثرت في رقة قلبه وفرط رحمته، وجعلته يجادل، ويطلب تأخير العذاب عنهم لعلهم يؤمنون، ويرجعون عما هم فيه من الكفر والمعاصي.

ولكن ماذا قالت له الملائكة؟ قالوا له:

﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾

يعني: يا إبراهيم لا تناقش في هذا الموضوع، حيث ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ بهلاكهم، ولا راد لأمره وقضائه.

﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أيضًا ﴿آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ بدعاء أو بجدال ونقاش وغير ذلك، وسكت إبراهيم عليه السلام.

وتركت الملائكة إبراهيم عليه السلام، وخرجت من عنده متوجهة إلىٰ قوم لوط.

ووصلوا إلىٰ لوط عليه السلام.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾

أي: لمَّا وصلت الملائكة رسل الله إلىٰ لوط عليه السلام ﴿سِيءَ بِهِمْ﴾ أي: استاء لوجودهم خوفًا عليهم من قومه ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي: ضاق صدره؛ لعدم قدرته علىٰ حمايتهم ﴿وَقَالَ﴾ معبرًا عن ذلك كله ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ شديد الصعوبة، كثير المشاكل، عظيم البلاء.

obeikandl.com

وحدث ما توقَّعه لوط عليه السلام:

﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾

أي: لمَّا جاء قومه علىٰ هذا الحال الفاحش ﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى﴾ فتزوجوهن، فـ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ وكان زواج المؤمنات من الكفار جائزًا. ثم قال لهم: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بترك الفاحشة، وفعل المباح ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ وتفضحوني ﴿فِى ضَيْفِىٓ﴾.

يا قوم ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ عاقل، يستمع لكلامي، ويستجيب لدعوتي، وينقذ سمعتي، ولا يهين ضيوفي؟! **فماذا قالوا؟**

﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾

منتهىٰ التبجح، حقًّا ليس فيهم رجل رشيد!!

حيث ﴿قَالُوا۟﴾ له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ سابقًا، أنه ﴿مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ﴾ وكل النساء ﴿مِنْ حَقٍّ﴾ أي: لا رغبة لنا في النساء.

﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ من إتيان الذكور، دون الإناث.

إلى هنا، حَزِنَ لوط حزنًا شديدًا، وخاف علىٰ ضيوفه من قومه، وأحس بالعجز أمام فحشهم وسوء قولهم، وما قد يفعلونه، ولذلك:

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾

أي: ﴿لَوْ﴾ أنني أملك ﴿قُوَّةً﴾ في مواجهتكم، أو كانت لي عشيرة وقبيلة تنصرني ضدكم لبطشت بكم، ومنعتكم مما تريدون.

فلما رأت الملائكة ذلك:

﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا

﴿يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾

أي: ﴿قَالُوا۟﴾ له ﴿يَٰلُوطُ﴾ لا تحزن، ولا تخف، فإن لك بهم قوة، وأنت تأوي إلىٰ ركن قوي شديد. حيث ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ إليك.

ولذلك: ﴿لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ﴾ بأي أذى، ولا لضيوفك.

ثم قالوا له: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ أي: سر ليلًا بأهلك خروجًا من هذا البلد، ولا يتخلف منكم أحد.

﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ فإنها ستتخلف؛ حيث ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا﴾ من الكفر والعصيان ﴿مَآ أَصَابَهُمْ﴾.

وهنا: كأن لوطًا قال بعد خروجهم، متى يكون هلاكهم؟. قالوا: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ وكأنه أراد هلاكًا أسرع من ذلك، إذ قالوا له ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾..؟!!

وجاء الصبح، وجاء أمر الله بالهلاك، يقول الله تعالىٰ:

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾

أي: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ بهلاكهم ﴿جَعَلْنَا﴾ عالي بلادهم ﴿سَافِلَهَا﴾ حيث رفعها جبريل عليه السلام إلىٰ السماء وأسقطها مقلوبة إلىٰ الأرض.

وكذلك ﴿أَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾ إهلاكًا لهم ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ من طين مطبوخ بالنار ﴿مَّنضُودٍ﴾ أي: متتابع، حجارة بعد حجارة. وهذه الحجارة ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ معلمة ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ كل حجر مكتوب عليه اسم صاحبه، الذي سيسقط فوقه. وهكذا كان عذاب الظالمين من قوم لوط.

ولكن: ﴿مَا هِىَ﴾ هذه الحجارة ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في أي عصر، أو في أي مصر، ﴿بِبَعِيدٍ﴾ عنهم سقوطها عليهم، وتعذيبهم بها. ألا فلينتبه الغافلون. وهكذا كانت نهاية قوم لوط عليه السلام. وفيها التهديد الشديد والوعيد الأكيد لكل طاغية فاحش.

ثم تنتقل آيات السورة إلىٰ قصة أخرى، **مع نبي آخر**، وقوم آخر. يقول ربنا الحميد المجيد سبحانه وتعالىٰ:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾

والمعنىٰ: وأرسلنا ﴿إِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ﴾ يدعوهم إلىٰ توحيد الله وعبادته.

﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وحده ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ﴾ يستحق أن يعبد.

ثم قال لهم بأسلوب رقيق شفيق: ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ﴾ بل أدوهما كاملين، أخذًا من الغير، وعطاءً للغير. حيث ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ وفي نعمة من الله تعالىٰ، تستحق الشكر، والوفاء في الكيل والميزان.

ثم ﴿إِنِّىٓ﴾ أحبكم وأحب إيمانكم، و﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ بكم، في الدنيا وفي الآخرة. **ثم قال لهم:**

﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾

أي: بعد أن نهاهم عن نقص الكيل والميزان، يأمرهم هنا بالوفاء فيهما علىٰ وجه العدل والتسوية. ثم ينهاهم كذلك عن بخس الناس في حقوقهم بصفة عامة ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ المادية، أو المعنوية، بخسًا ماديًّا ـ كذلك ـ أو معنويًّا. وهذا النقص وإن كان فسادًا وإفسادًا !! وهذا البخس وإن كان فسادًا وإفسادًا !! إلا أنه لا يكتفي بالنهي عنهما، كصور من الفساد، بل ينهىٰ عن الفساد عامة، حيث يقول لهم: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ بل كونوا فيها مصلحين لها، مسعدين لأهلها.

ثم ذكرهم بقيمة الحلال قائلًا:

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾

يعني: رزق الله الحلال ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مما تفعلون؛ حيث يبارك لكم فيه بشرط إيمانكم ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَمَآ أَنَا۠﴾ إلَّا مجرد ناصح لكم فقط، وداع لكم إلىٰ النجاة فقط، ولست ﴿عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ من غضب الله وعذابه في حال استمراركم علىٰ كفركم وعصيانكم.

أتدرون بماذا أجابوه بعد هذا الكلام الطيب والتوجيه الجميل؟

﴿قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾

أي: ﴿قَالُوا۟﴾ مستهزئين به، متهكمين عليه، ﴿يَـٰشُعَيْبُ﴾ ما هذا الكلام الذي تقول؟

﴿يَـٰشُعَيْبُ﴾ نحن أحرار فيما نفعل، سواء في عباداتنا، أو في حياتنا واقتصادنا، ولا دخل لصلاتك في هذا ولا في ذاك. هل أنت العاقل الراشد فقط من بيننا، حتىٰ تكون وصيًّا علينا ناصحًا لنا؟ ابتعد عنا يا شعيب، واتركنا فيما نحن فيه.

ولم يسكت شعيب، ولم يبتعد عنهم، بل:

﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾

يعني: ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿يَـٰقَوْمِ﴾ أخبروني ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ أي: بصيرة وهداية ﴿مِّن رَّبِّى﴾ فيما أدعوكم إليه، وآمركم به، وأنهاكم عنه، وأخبروني كذلك إن كان الله تعالىٰ قد ﴿رَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ﴾ وهو النبوة، وإرسالي إليكم لينقذكم من الكفر والمعصية، هل يصح لي أن لا أدعوكم إلىٰ ما أرسلني به إليكم؟

يا قوم، لا تظنوا أني أنهاكم عن هذه المعاصي؛ لأفعلها أنا وأقع فيها، بل ما ﴿أُرِيدُ﴾ لمَا آمركم به وأنهاكم عنه ﴿إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ﴾ إلىٰ ذلك سبيلًا، حبًّا فيكم، وخوفًا عليكم.

﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ﴾ ونجاحي في تحقيق هذا الغرض ﴿إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ وعونه وتأييده.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في كل أموري ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أرجع في كل أحوالي.

ثم قال لهم:

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾

أي: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ لا تحملنكم عداوتكم لي، وبغضكم لدعوتي على مخالفتي، والكفر بالله، وعصيانكم له. حتى لا يصيبكم من الهلاك والعذاب ما أصاب الأمم من قبلكم، التي فعلت فعلكم، وعاندت عنادكم، وكفرت كفركم.

وأضاف قائلًا لهم أيضًا:

﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾

يعني: اتركوا عداوتي، ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ عما كان منكم، وعودوا إليه واعبدوه؛ يغفر لكم، حيث ﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ﴾ بمن استغفره ﴿وَدُودٌ﴾ لمن تاب إليه، وعاد إلى حِماه.

وبعد هذا الكلام الطيب الرقيق النصوح من شعيب لقومه ماذا كان موقفهم؟ لا جديد عند الطغاة، حيث:

﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾

أي: ﴿قَالُوا۟﴾ له مستهزئين به: ﴿يَٰشُعَيْبُ﴾ ما هذا الذي تقول؟ نحن ﴿مَا نَفْقَهُ﴾ ونفهم ﴿كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ !! ولذلك لن نؤمن بك، ولن نتبع دعوتك.

وليس هذا فقط، بل ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ﴾ لا عز لك عندنا، ولا مكانة لك بيننا، ولا قدرة لك علينا ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ عشيرتك وأهلك، الذين نراعي خاطرهم ﴿لَرَجَمْنَٰكَۖ﴾ بالحجارة حتى الموت، حيث إنه ﴿مَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ الجانب، ولا كريم المنزلة.

قالوا ذلك وشعيب عليه السلام يسمع، دون أن يغضب أو ينفعل، أو يتركهم. بل:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾﴾

يا ألله!! لم يغضبه استهانتهم به، وازدراؤهم له، ولكن آلمه خوفهم من أهله وعشيرته، وعدم خوفهم من الله .﴿أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾؟!!

﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ﴾ سبحانه ﴿وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ فلم تخافوه، ولن تؤمنوا به؟!!

لا تظنوا أنه عز وجل غافل عنكم، ولا عن أعمالكم، ولا عن معاصيكم، ولا عن عقابكم، حيث ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ عالم به، وسيجازيكم عليه.

ثم قال لهم الكلمة الأخيرة:

﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾

أي: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ ما دمتم مصرين على مواقفكم، فكونوا كما تريدون؛ حيث ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]..

﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: على ما أنتم عليه ﴿إِنِّي عَٰمِلٌ﴾ على ما أنا عليه.

ولن يضيع الأمر سدى، بل ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ﴾ منا، أنتم أو أنا ﴿عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ في الدنيا والآخرة، وسوف تعلمون ساعتها ﴿مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾ فينا، وحتى يكون ذلك ﴿ٱرْتَقِبُوا۟﴾ وانتظروا ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾.

وبهذا بلَّغ ما كُلِّف به، وفوض الأمر لله، وكانت نهاية قوم شعيب كما يصورها الله تعالى في قوله:

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾

أي: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ بالإهلاك والتدمير لأهل مدين ﴿نَجَّيْنَا﴾ من ذلك ﴿شُعَيْبًا﴾ عليه السلام ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾.

وبعد ذلك: ﴿أَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ وكفروا وعاندوا ﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾ كما أهلكنا بها ثمود، قوم صالح. حيث أخذتهم الرجفة، وتزلزلت بهم الأرض، وصاح بهم جبريل صيحة ماتوا منها جميعًا.

﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ باركين علىٰ ركبهم ميتين، لا حراك فيهم.

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾ ويعيشوا في رحابها قبلًا ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ﴾ وهلاكًا وطردًا من رحمة الله ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ الذين كانوا يشبهونهم في الطغيان، وفحش لسلوك والعادات. وهكذا هلكت أمة طاغية..

وتبدأ الآيات الكريمة في عرض قصة أخرىٰ **لنبي آخر**، حيث يقول ربنا عز وجل:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾

وهذه قصة موسى عليه السلام مع فرعون وملإه، يقول تعالىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ أي: بعد الذين سبق ذكرهم من الأنبياء ﴿مُوسَىٰ﴾ عليه السلام ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ يدعوهم إلىٰ عبادة الله وحده، وترك بني إسرائيل لحريتهم، وكان مع موسىٰ الآيات الدالة علىٰ نبوته، والحجة الواضحة علىٰ رسالته، فعاند فرعون، واتبعته حاشيته علىٰ ضلاله وعناده.

ولذلك: ﴿يَقْدُمُ﴾ فرعون ﴿قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إلىٰ النار، فيوردهم فيها، ويدخلهم إليها، وهو معهم ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾. وليس هذا فقط، بل إنهم ﴿أُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ﴾ الدنيا ﴿لَعْنَةً﴾ تصاحبهم فيها ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ كذلك.

﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ﴾ أي: العطاء ﴿ٱلْمَرْفُودُ﴾ أي: بئس العون والعطية والنتيجة التي قادهم إليها فرعون عليه لعنة الله. وبهذا الشكل السريع والإشارة الخاطفة انتهت قصة موسىٰ عليه السلام.

ثم يقول الله تبارك وتعالىٰ لحبيبه في نهاية هذا القصص الذي عشنا معه هذه الفترة السابقة:

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾

أي: ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي قصصناه عليك يا محمد، وأخبرناك به ﴿مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ﴾ السابقة، وما حدث فيها بين الأنبياء وأقوامهم هو من أنباء الغيب، التي لا يعلمها إلَّا الله ﴿نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ﴾ إعلامًا لك، وتثبيتًا لموقفك، وتعليمًا لأمتك.

هذه القرىٰ: ﴿مِنْهَا قَآئِمٌ﴾ أي: عامر باق، ومنها ﴿وَحَصِيدٌ﴾ هالك قد اندثر.

وأما أهل هذه القرىٰ فما ﴿ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ بما فعلناه فيهم ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بكفرهم وعنادهم، وعبادتهم لغير الله.

وساعة هلاكهم ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى﴾ كانوا ﴿يَدْعُونَ﴾ بها ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ من هذا العذاب ﴿لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ به لهم.

﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ أي: خسارة علىٰ خسارة، وضياعًا فوق الضياع، وهلاكًا بعد هلاك.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾

يعني: ومثل ما حدث في هذه الأمم الكاذبة الظالمة سنة الله تعالىٰ وطريقته ﴿إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾ أهلها.

حقًّا: ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾. فلينتبه الطغاة الظالمون.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾

أي: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ القصص الذي ذكرناه ﴿لَءَايَةً﴾ وعبرة ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يستفيد منه، ويتعظ به، ويهتدي بسببه.

﴿ذَٰلِكَ﴾ اليوم، الذي يكون فيه العذاب ﴿يَوْمٌ﴾ رهيب ﴿مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ كلهم، من أولهم إلىٰ آخرهم، للحساب والثواب والعقاب.

حقًّا: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ حيث تحضره الخلائق كلها، من إنس، وجن، وملائكة، وكل المخلوقات. نسأل الله تعالىٰ النجاة فيه، والبعد عن أهواله.

هذا اليوم لم يأت بعد، بل يؤخره الله تعالىٰ، حيث يقول سبحانه:

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾

فلا يظن أحد أنه لن يكون، كلَّا، إنه سيكون في الموعد الذي حدده الله له، واختص وحده بعلمه، فليستعد له كل عاقل.

يقول الله تعالىٰ عن هذا اليوم:

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾

نعم.. ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ [النبأ: ٣٨، ٣٩].

والناس ساعتها قسمان: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ منهم معذَّب، ومنهم منعَّم.

جعلنا الله تعالىٰ من السعداء المنعمين.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾

يعني: ﴿فَأَمَّا﴾ الصنف الأول، وهم ﴿ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى﴾ علمه تعالىٰ أنهم يدخلون النَّارَ، ويكون ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾.

كما أنهم يكونون ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أبدًا ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ في الدنيا، ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ﴾ أي: غير ما شاء ربك من أزمنة أخرىٰ تحقق هذا الخلود. وهذا يشمل عذابهم بالنار، في القبر، وفي جهنم، والعياذ بالله تعالىٰ.

ولا مانع من هذا الخلود، وهذا العذاب لهم أبدًا؛ حيث ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

وبعد أن بيَّن ربنا عذاب الأشقياء، يبيِّن نعيم السعداء، فيقول جل جلاله:

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾

يعني: ﴿وَأَمَّا﴾ الصنف الثاني، وهم ﴿ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى﴾ علمه تعالىٰ أنهم يدخلون ﴿ٱلْجَنَّةِ﴾ ويكونون ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أبدًا ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ أي: غير ما شاء ربك من أزمنة أخرىٰ، تحقق هذا الخلود. وهذا يشمل نعيمهم في القبر، وفي الجنة.

كل هذا يكون ﴿عَطَآءً﴾ من الله تعالىٰ لهم، وتفضلًا عليهم ﴿غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ أي: غير مقطوع أو منته.

ثم يخاطب ربنا محمدًا ﷺ، وكل عاقل يعتبر بقصص الأولين قائلًا:

﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾

أي: لا يكن عندك شك يا محمد ـ بعد معرفة بطلان عبادة الهالكين من الأمم التي قصصناها عليك ـ في بطلان ما يعبد قومك هؤلاء، الذين ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾ من الأصنام.

﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ من العذاب، كاملًا ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ كما وفينا من قبلهم من الطغاة الكافرين المعاندين، وفي هذا تهديد للكفار، ووعيد.. وتثبيت للنبي ﷺ، والمؤمنين معه، وتأييد.

ثم يقول الحق سبحانه كذلك:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾

يعني: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهو التوراة ﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ من قومه فمنهم مَن آمن به، ومنهم مَن كفر، كما آتيناك القرآن فاختلف فيه من قومك، فمنهم ـ كذلك ـ مَن آمن به، ومنهم مَن كفر. فلا تحزن، ولا يضيق صدرك بهذا.

obeikandl.com

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بعدم استئصال المكذبين من هذه الأمة ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بالهلاك، كما حدث مع السالفين.

ومع هذا الإمهال فـ: ﴿إِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ أي: من القرآن ﴿مُّرِيبٍ﴾ بالغ في عدم الطمأنينة. **على كل حال..**

﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ۚ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾﴾

أي: ﴿وَإِنَّ كُلًّا﴾ من هؤلاء وهؤلاء، أي: المكذبين السابقين والمكذبين من قومك، إلَّا ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ﴾ جزاء ﴿أَعْمَالَهُمْ ۚ﴾.

حيث ﴿إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ وسيحاسبهم عليه. **وما دام الأمر كذلك..**

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ۚ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾

في هذه الآية والآيتين بعدها، يرسم الله منهجًا للحياة الإسلامية، يخاطب فيه، ويكلف به النبي ﷺ، ومن آمن معه.

يأمر فيه **أولًا** قائلًا: ﴿فَاسْتَقِمْ﴾ على منهج الله ﴿كَمَا أُمِرْتَ﴾ به في القرآن الكريم، وبينته السنة النبوية.

﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ أي: ومَن آمن معك كذلك.

وينهى فيه **ثانيًا** بقوله: ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ على غيركم، في حال غناكم، أو قوتكم، أو نجاحكم.

حيث ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وتستقيمون على منهج الله، أو تطغوا على غيركم ﴿بَصِيرٌ﴾ عالم به؛ فيجازيكم عليه بما تستحقون.

ثم ينهى فيه ـ كذلك ـ **ثالثًا** ـ فيقول:

﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾

يعني: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ﴾ بميل، أو رضًا، أو تعاون على إثم ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ في حال ضعفكم بالاستعانة بهم، أو في حال قوتكم بالتودد إليهم. فإنكم لو فعلتم هذا أو قريبًا منه ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ بسبب ركونكم إليهم، ﴿وَ﴾ ساعتها ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ يمنعون عنكم عذاب الله الناتج عن مخالفتكم أوامره.

﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أبدًا.

ثم يأمر ربنا ـ في هذا المنهج ـ **رابعًا**، فيقول:

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾

أي: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وأدها في كل أوقاتها، كاملة غير منقوصة، حيث ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ﴾ كهذه الصلوات الخمس ﴿يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ فيصير المرء خاليًا من العوائق والذنوب الحائلة بينه وبين تطبيق هذا المنهج الرباني للحياة، ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي تقدم من الأوامر والنواهي في هذا المنهج ﴿ذِكْرَىٰ﴾ موعظة نافعة ﴿لِلذَّٰكِرِينَ﴾.

ولأن تطبيق هذا المنهج يحتاج إلى عزيمة ومثابرة، فإن الله تعالى يقول لمن يريد النجاح فيه:

﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾

أي: اصبر على التحلي بما أُمرت به، وعلى التحلي عما نُهيت عنه، حتى تنجح نجاحًا كاملًا، وتحسن إحسانًا تامًا؛ فتكون من المحسنين.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ يجازيك خيرًا؛ حيث إنه سبحانه ﴿لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

ثم يقول سبحانه منبهًا على ضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾

والمعنى: لو كان من القرون والأمم السابقة ﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ﴾ من فضل ودين وعلم، يقومون بواجب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، و ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ﴾.. لَانْصَلَحَ حال هذه الأمم، وما حل بهم العذاب على نحو ما ذكرناه عنهم.

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ﴾ نهوا عنه، وابتعدوا منه، فنجوا من هذا العذاب. ولكن الأكثرية لم تنه عنه، ولم تستجب لمن نهى، وكانوا ظالمين ﴿وَٱتَّبَعَ﴾ هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ شهواتهم، و ﴿مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ﴾ من النعيم والملذات ﴿وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾.

وفي هذا تنبيه لهذه الأمة حتى تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتطيع مَن يفعل هذا، ولا تظلم، ولا تتبع شهواتها حتى لا تكون من المجرمين.

ثم يبين ربنا أن الفساد سبب الهلاك. فيقول جل جلاله:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾

أي: ليس من سنة الله تعالى أن يهلك بلدًا ﴿وَأَهْلُهَا﴾ بعيدون عن الفساد ﴿مُصْلِحُونَ﴾ لأحوالها، وأهلها بشرع الله تعالى، حيث إنه سبحانه لو فعل ذلك لكان ظلمًا، والله منزه عن الظلم.

ثم يبين عز وجل سبب اختلاف الناس والأمم فيما بينها، والحكمة في هذا الاختلاف. فيقول جل وعلا:

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾

يعني: طبائع الناس مختلفة، ولذلك يختلفون، ومن الأمور التي اختلف حولها الناس طاعة الله تعالى.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ﴾ الذي خلق الجميع ﴿لَجَعَلَ﴾ هؤلاء ﴿ٱلنَّاسَ﴾ المختلفين ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ وطريقًا واحدًا في الطاعة، لا تختلف حولها بكفر وإيمان، ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك؛ فصاروا مختلفين، منهم المؤمن ومنهم الكافر.

﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ حول الكفر والإيمان ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ منهم، فهؤلاء لم يختلفوا على طاعة الله والإيمان به.

﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ على هذا الوضع المختلف، ليميز الخبيث الذي يختار الكفر من الطيب الذي يختار الإيمان.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ الأزلية، وهي ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ولله الحكمة العليا والمشيئة الكبرى.

ثم يخاطب ربنا عز وجل حبيبه في نهاية السورة مبينًا له حكمة قصه هذا القصص الذي سبق ذكره، فيقول جل جلاله:

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾

أي: وكل هذا القصص، وما فيه نقصه عليك ﴿مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ﴾ ونقويه، حتى لا يتأثر بعناد قومك.

﴿وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ﴾ السورة ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الذي لا خيال فيه، ولا كذب حوله ﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾ لمن ينتفع به ويعتبر ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين يتبعوك.

وأما المعاندون فهددهم..

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

يعني: ﴿قُلْ﴾ للمعاندين الكافرين ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بما جئت به، ودعوت إليه، ولا ينتفعون به، ويتعظون بما جاء فيه ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ وسيروا على طريقتكم الخاطئة، كما تريدون، فـ ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾ وسائرون على طريق الحق، كما هدانا الله ﴿وَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ بنا ما تريدون لنا من الهلاك ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ كذلك ما ينزل بكم من الهلاك، وما ينعم الله علينا به من الفوز والفلاح.

وقد تحقق ما وعد الله به الفريقين: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

﴿ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

ثم ختمت السورة بهذا التوجيه الرباني:

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

أي: لا تخفىٰ علىٰ الله خافية، حيث ﴿لله غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وسيجازي الجميع بما يستحقون، في يوم ﴿إِلَيْهِ يُرْجَعُ﴾ فيه ﴿ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾.

لذلك: ﴿فَٱعْبُدْهُ﴾ وحده ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ وحده، يجزيك خيرًا، ويقيك شرًّا.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ جميعًا، المؤمنون والكافرون، وسيجازي المؤمنين بعفوه ورحمته، والكافرين بعذابه ونقمته.

* * *

obeikandl.com